ممارسة تأملية

سِيرةُ الحَيَاةِ وَرَمْزِيّةُ المَعْنَى

عندما كنت معلمة... أو أنا خلف القناع

إن ما سأعرضه عليكم هو جزء من تجربة في التجربة نفسها، فالتجربة هنا هي مرآة تعرض نفسها عرضاً قد يعيدنا إلى لعبة القناع والمرآة، ليس لأن الحياة تمثل بالنسبة للمعنى ما يمثله الوجه للقناع، وإنما لأن القناع هنا كان هو التجربة.

الآن، سأكشف لكم عن شيء يخصني، عن كيف أبني شغلي؟ أبنيه بشكل يجمع بين العمل على الإقناع والعمل على الإغواء أو الإمتاع، فالنشاط الذي لا متعة فيه لا جدوى منه، وهذا هو المبدأ الأول في عملي. أما الثاني: فلا بد لعملي من أن يحوي شيئاً مني، لا بد أن يعكسني أو يترجم جزءاً من جسدي . . من خبرتي . . من قناعاتي، وإلا فقد معناه عندي، وكيف يكون لشيء معنى وهو فاقد للمعنى عند صانعه. أما المبدأ الثالث: فهو وضعي للتكوين المهني في حالة مواجهة مع الخبرة وليس امتداداً لها، ما يعني أن كل تجربة أو مساق أصممه يجب أن يحوي أشياء وخبرات جديدة، ليس للمشاركين فحسب، بل ولي شخصياً أيضاً، ولهذا فكما أن كل عمل لي يحوي أفضل ما في الأعمال التي سبقته، فإنه يستقدم ما سيؤسس للأعمال التي ستتبعه، وإلا توقف نموي المهني، ما يعطل نموي الشخصي و الوظيفي معاً.

وفي لحظة ما، وبسبب انشغالي الشخصي بتطوير عملي ونتيجة للحوار بيننا في مركز القطان، تنبهت لأهمية التمهين كمسار لبناء الشخص والمهنة، من خلال التفكير عبر الفعل والفعل المفكر عبره أو ما يسمى الممارسة التأملية والفكر المُفَعَّل، ما قادني إلى سلسلة من البحث النظري، فقرأت في فلسفة التكوين، وتوصلت إلى نقطة مركزية، هي: إن النمو المهني ليس مسألة معرفة ومهارات فقط، بل هو في أساسه مشروع تحولات وقناعات، وواصلت البحث والقراءة، وكونت فكرة عن مبادئه، أجهزته وإستراتيجياته، واطلعت على شذرات من تجارب مترجمة لمعلمين ومعلمات عبروا تجارب من هذا النوع.

واستنتجت من هذه التجارب، أن الإنسان لا يمكنه قبل ممارسة مهنة التعليم من الادعاء أنه مؤهل لممارستها، ما يعني أن التكوين النظري والتجريبي هو احتمال نجاح، ولكن المحك الحقيقي هو الانخراط، كل هذا يمكننا تقبله، لكن ما أدهشني هو اكتشافي أن الانخراط في الممارسة دون الوعي بها هو أيضاً لا يعني التأهل للقيام بالمهنة، فكون الشخص يمارس التعليم منذ سنوات لا يعني بتاتاً أنه معلم، وأن إمكانية تحقق الفرد كمعلم إمكانية مفتوحة ومشروطة بجعل الممارسة مساحة للتفكير في الذات، وهي منخرطة في العالم، تفكير ليس مساءلة للعالم فحسب، بل انخراط نقدي في مشروع تقويم المهنة وتقدير الذات.

وبدأت أفكر كيف أوظف هذه المعرفة في عملي مع المعلمين من أجل تحفيزهم على توظيف الممارسة التأملية لإعادة النظر في عملهم الصفي ؟ كيف أجعلهم يقتنعون باعتماد التَّكوُّن المهني وأدواته كمنهجية مهنية وسياسة حياة، وكنا على وشك الإعلان عن مساقات صيف العام الماضي في الخليل، وكان مساقي شبه مكتمل، وأقول شبه مكتمل؛ لأن كل مساق أعمله أقوم في أثناء انخراطي فيه بالذهاب إلى مكان جديد وخبرة جديدة، من خلال إزاحة في عملي تمهد لعنوان جديد ومضمون مختلف، وكان المساق يدور حول "التجربة الحياتية والكتابة وتوظيفها في المهنة والمجتمع" تحت عنوان: شاعرية التجربة: السرد والكتابة والهوية. وقررت أن تكون الخطوة الجديدة عملاً يمهد لدخول حقل التكون المهني كخطوة تخيط مساحة لمساق آخر، أجربها في الخليل، ثم ابني على التجربة لتصبح شيئاً أكثر معنى وأكثر نضوجاً وفاعلية.

وبدأ السؤال: كيف أقدم الموضوع إلى معلمين ومعلمات؟ وهذا ليس سؤالاً في الشكل فقط، وفكرت كيف أجعل الشكل ملهماً ومكوِّناً؟ كيف أصيغه ليصبح نشاطاً ينخرط فيه المعلمون؟ أي كيف أجعل الشكل نصاً للتكون المهني الذاتي بما هو تعديل في القناعات وتحويل للممارسات، ويكون الشكل في الوقت نفسه جزءاً من تحقيق هذا التحويل؛ أي نقل الفكرة من كونها قناعات نصية إلى نص في تأمل القناعات وتحويلها؟ ما جعلني أبحث عن شكل يمس القناعات، ويجدد في الممارسات والأساليب، ويثير أسئلة تمهد لتحولات، شكل يحقق المتعة والقناعة، ويتيح للمشارك أن ينخرط بعمق في نشاط، وأن يعبر إلى المعنى عبر سياق حي.

في ضوء هذه الاشتراطات، سقط من مساحة الاختيار احتمال كل من المقالة، أو العرض على شكل سلايدات (شرائح إلكترونية)، أو على شكل أفكار للحوار، فحتى فكرة الحوار أو المحادثة التوضيحية عندما

تنشغل بموضوع مجرد تفقد قدرتها على الاشتغال. فالمطلوب هنا شكل يدخل المعلمين في فلسفة التَكَوُّن المهني، كتكون ذاتي مستمر، ويولد لديهم قناعة بأهميته من جهة، وبفاعلية أدواته من جهة ثانية، والشروع في الانخراط فيه، ما يفضي إلى تبنيه كمنهج في الحياة والعمل.

وبدأ البحث عن شكل يقدم التكون المهني" التمهين" ورؤيته وأساليبه في سياق حياتي وشخصي، وعلى شكل خبرة ذاتية، ومعنى معاش، ومواقف حية فعالة، ما اضطرني أن ألبس القناع وأكتب يوميات معلمة مرت بتجربة التكوين المهني الذاتي المستمر لسنة كاملة عبر مشروع "تحليل الممارسات وبناء الوعي" وأنجزت اليوميات، وكانت أقرب إلى صورة لمعلمة مرسومة بالأبيض والأسود؛ ملامح فقط، خوف وتردد، تذمر وعجز، فشل هنا وبعض النجاحات هناك، معلمة تمر في تجربة: تقرأ، تُقدم لها منهجيات جديدة في العمل والتأمل، تتشارك مع آخرين، تصبح جزءاً من فريق انفعالي نشط مؤمن بالمشروع، تلتصق أكثر بتجربتها وتتعلم مع طلابها، تعرفهم وتحبهم وتبدأ تتغير، تحس بالطلاب، تقرأ احتياجاتهم، وتكتشف إمكانياتهم، وتعبر إلى التدخل في حياتهم خارج أسوار المدرسة، فتكتشف أنها أصبحت معلمة وأُمّاً ومناضلة. فتقول: اليوم أصبحت معلمة.

مقتطفات من يوميات المعلمة

9/14

طلابي ليس عندهم المستوى المطلوب، والمناهج صعبة، وأنا تحت ضغط هائل، هذا بالذات ما يحيرني . . . لا أدري إلى أين أسير؟

10/12

صرنا اليوم نتبادل فيما بيننا كمعلمين ما نقوم به من أعمال، أصبحنا لا نخاف النقد، ولدينا إحساس جمعي يتولد وينمو، ثمة زميل قال لي: هذه خزانتي، خذي منها ما تريدين . . . هذا جوهر مشروع التكون، أن نستفيد من زملاء آخرين، لكن ذلك مرهون بثقتنا بأنفسنا، بتجربتنا: لا بد أن يكون لك تجربة أولاً، ورؤية ثانياً، ثم تتمكن من التبادل، تبادلات يتبعها قراءة وفرز واختيار، الاستفادة من الآخرين بعد تطويع تجربتهم لتلائم تجربتنا مع طلابنا، هذا هو الفهم الصحيح للمشروع.

11/11

لقد قلت من قبل إننا أصبحنا نمارس العمل الجماعي، الشيء الذي لم أكن أفعله لقد كنت أرفض ذلك، أنا نفسي تقريباً لم أكن أشعر أنني متمكنة بما يكفي من المادة، لم أكن أشعر أنني واثقة تماماً من قدرتي على الاشتراك في عمل جماعي. حسناً الآن أتحكم في ذلك أكثر فأكثر، على أية حال ينبغي أن نتقن ما نفعل لكي نستطيع بعد ذلك أن ننوع تدخلاتنا، ونعتز بممارساتنا مع طلابنا، ولكي نقدم شيئاً لزملائنا نحن فخورون به.

11/25

حسناً، لم يعد يمكنني أخذ عمل معلم آخر وتقديمه لطلابي مباشرة، يجب أن أختبره أولاً، لأننا لا نحس بالأشياء بالشكل نفسه، إننا لا نتوصل إلى تمرير الأشياء نفسها بالكيفية نفسها، ثم أن التلاميذ ليسوا التلاميذ أنفسهم أيضاً، إننا نعد أحياناً مقترحات لأنشطة أو أوراق عمل مختلفة للصف نفسه، لن أقدم الشيء نفسه لشعبتي سادس (أ) وسادس (ب)، لا أستطيع ذلك، عليَّ أن أكيِّف كل نشاط وكل ورقة عمل لتناسب طلابي كجماعة وكأفراد، هذا ما أصبحت أحس به.

12/1

تغير موقفي من التقييم وأصبح في صالح الطالب، لم يعد موضوع تقييم سلبي، ولم تعد العلامات مقصده، اليوم نسعى في كل الحالات لإسناد بعض النقاط عسانا نثمنها وعسانا ندفعهم إلى العمل. التقييم الذي أفعله الآن يقوم على العمل معهم ومساعدتهم عندما يستعصي عليهم الأمر، أقدم لهم نصيحة أو مساعدة، اليوم أنا مساعدة تظهر وقت الشدة، أو ميسرة يلجأ إليها الطلاب عند الحاجة.

12/7

أعددت ورقة عمل كان على الطلبة تنفيذها بناء على تعليمات محددة، وقد قمت بتوضيحها بالألوان والخطوط للمتعثرين، لكن الكثير منهم لم يفهم التعليمات، والورقة تعثرت، وكانت خيبة أمل، لكني فهمت أن الورقة لم تكن معدة جيداً، والتعليمات لم تكن بالوضوح الكافي، ولذلك سأعدلها، سأعيد بناءها، قبل الآن كنت لا أتمكن من رؤية أن السبب في بنية النشاط أو شكل الورقة، وأن الحل ممكن ببعض التعديلات، كنت سأتهم الطلاب أو ذاتي بالعجز والفشل وأحبط فقط. . . اليوم الوضع مختلف، التعثر جزء من العمل، جزء مهم لأنه يغيرنا.

12/9

في العمل الجماعي كنت أستفيد من زميلتي، فقد كانت تعلم طلابها معاً وكانت تدير حواراً حول مسائل اجتماعية أو برامج تلفازية أو قصص بعد أن يكون الطلاب قد جمعوا معطيات وكتبوا تقارير عن هذه المسائل، ومنها ما تطلب أسابيع من العمل، عمل لم أكن أجرؤ على فعله، وكان الطلاب متحمسين حقيقة ويعملون بمتعة سرت في الجو وانتقلت لي أيضاً، كان لدي انطباع بأنهم يتعلمون دون ملل، لنقل إنني على ما أعتقد كنت أشعر براحة، وكان الشعور ذاته لدى الطلاب أيضاً.

12/15

أصبحت لا أخاف من التجريب، أقدم جزءاً من نص خيالي وندخل في نقاش شفوي أكثر، ثم نكتب في سياقات متخيلة أو افتراضية، وأخرى واقعية أو تاريخية، هذا لم يكن يحصل سابقاً، لأني أنزع في العادة لجعل الطلاب يكتبون كثيراً، وفي مواضيع كانت تبدو لي جدية، فذلك يطمئنني، والآن لنقل أنه أصبح من الممكن أن تمر أجزاء من ساعة لا يكتبون فيها شيئاً، ويتكلمون فيها فقط، في السابق لم أكن اقتنع بأهمية ذلك، هذا لم أكن أقدر عليه، كنت أقول لنفسي أنهم لم ينجزوا شيئاً، لأني كنت أرى معنى للخربشات على الورق، ولا أقدر على رؤية المعنى العميق لما يكتب كلاماً فينا وبيننا.

12/30

لدي حالة خاصة، طالب يشتكي من صعوبات حقيقية وبخاصة في اللغة، ويحصل على علامات رديئة، ومع ذلك شجعته وحصل فيما بعد على علامة معقولة، وبعد ذلك أذكر أني كلفته بعمل؛ حيث

طلبت منه أن يقوم ببحث في التربية المدنية في موضوع "أطفال وغياب الحقوق: أطفال خارج المدرسة". وجد وثائق كثيرة وجمع معلومات، وطلب أن يقرأ ما وجده، ولكنه لم يفلح في ذلك، لأن ما كتبه لم يكن واضحاً بشكل كاف له. قلت له: "سوف تقوم بتوضيح ما كتبت، وفي الأسبوع القادم سوف تقدم عرضك". وفي الأسبوع التالي كان قد أعد ذلك جيداً وبشكل واضح بالنسبة إليه، وعرضه بشكل جيد، وكان له ابتسامة عجيبة، وكان ينظر في عيوني، وكنت أستقبله بالحب والإعجاب، وأحسست أنه نجح وحظي بإعجاب زملائه، وبعدها لم يتوقف عن المشاركة، وهو يشارك جيداً ويبقى يقظاً دوماً، مع أنه كان في بداية السنة ينزع إلى النعاس وإلى عدم الاهتمام.

1/15

ثمة طلاب كثيرو الحركة يجدون صعوبة حقيقية في تلقي معرفة نظرية عبر وسائط سمعية وبصرية فحسب، وحاولت دائماً دمجهم في العمل، ولكنهم في الماضي كانوا مصدراً للإزعاج. اليوم أراهم رصيداً خصباً للعمل، مثلاً في أثناء تدريس التاريخ حاولت أن أوظف القصص والمسرحيات، وجعل التلاميذ يندمجون فيما أقصه وفيما أقوم بتمثيله، أحاول فعلاً أن أجعلهم يشاركون، ومن خلال الأساطير وقصص الأديان القديمة، أستخدم الحركة كثيراً، لقد تمكن هؤلاء الطلاب من أن يساعدوني بشكل جيد، أستفيد من رغبتهم في الحركة واستعدادهم للتمثيل وجرأتهم، ولم يقف الأمر هنا، فقد تمكنوا أيضاً من التوصل لنتائج معرفية نظرية ومجردة، فقد تمكنوا عبر الجسد أن يحققوا ما عجزوا دوماً عن تحقيقه بالذهن الراكد.
فقد تجاوزوا مجرد القص، حيث قال بعضهم: إن للقصص قيمة رمزية مهمة. وقال آخرون: إن حياة القدماء تختلف عن حياتنا اليوم، لكن فيها الكثير من المعنى، وفيها أشياء مثيرة. وفي قصة زوجة الملك قلت لهم: لا تخبروا الملكة أن زوجها قد تزوج من امرأة أخرى، وسمعتهم يؤكدون على بعضهم بأنهم يجب ألا يخبروها لأنها في ذلك الزمن لم تكن تعرف، وأخذ الحوار بينهم شكل ماذا كان سيحدث لو علمت؟ ولكنها لم تعلم حتى الآن . . . يجب على الأقل ألا تعلم الآن، واتفقوا على ما اقترحه أحدهم أنها الآن يجب ألا تعلم، وفي نهاية المسرحية سنخبرها ونرى ماذا سيحدث، لقد جعلتهم يشرعون بالعمل، ولكنهم لم ينخرطوا في اللعبة فحسب، بل تجاوزوها وتجاوزوني، وهذا دفعني للمراقبة بفضول، فضول ساقني لكي أنتظر بشغف لأرى ماذا ستفعل الملكة عندما تعلم بخيانة الزوج؟

2/3

أصبح الكثير منهم يتوجه إليَّ بصفة شخصية لكي أرشدهم، أعتقد أننا مضطرون أن نحل أحياناً محل أولياء الأمور، فقد أصبح يتكرر لجوء الطلاب والطالبات إليّ طلباً للمساعدة، طلباً للنصح والإرشاد النفسي، ولكني غير مؤهلة لهذا النوع، وهو خارج مهمتي الصفية، وهل لدي الوقت، مع ذلك لا بد من سماعهم على الأقل وإظهار بعض التعاطف والتضامن.

2/19

الطلاب يلجأون إليَّ في مكتبي وفي بيتي أحياناً استقبلهم بسرور، أسمع مشاكلهم، هذا يطرح أمامي مشكلة جديدة: الإرشاد النفسي والتصدي لقضايا خارج المدرسة، بدأت أقرأ في هذا المجال، هناك كتب مفيدة. إحدى طالباتي بدأت تحدثني عن مشاكلها الشخصية قالت لي اليوم إنها ببساطة وجدتني أشبه أمها المتوفاة، وهذا ما دفعها إلى اللجوء لي ومخاطبتي، اليوم أصبحت أماً أيضاً، وهل هذا يحتاج إلى تعلم، أظن أنني مؤهلة لذلك.

2/25

هذا اليوم كانت تلميذتي-ابنتي في غاية سعادتها، مشرقة فرحة في غاية نشاطها ومشاركتها، كنت أتغافل عنها، وهي تهمس لزميلاتها بالسر: المعلمة كانت تزور بيتنا يوم أمس، نعم لقد زرتهم في البيت يوم أمس، نعم لقد زرتها في بيتهم وجلست مع والدها وزوجته، والدها الذي كان سعيداً بكوني أزور بيته لأخبره أن ابنته من أفضل طالبات الصف، وبعد كلام وحوار قال الأب وزوجته تلميحاً أنهم سيعتنون بها أكثر لكي تحافظ على تقدمها ووعدوني بزيارتها في المدرسة. اليوم أحسني بدأت أصبح معلمة، اليوم ولدت من جديد، أمًّا ومعلمة ومناضلة في بيتي ومدرستي ومجتمعي، اليوم أنا إنسانة أستطيع أن أحكي حكايتي بفخر.

لن أنشغل الآن كثيراً بالقول من أين أتيت بما كتبت فقط، سأقول إن هذه المعلمة حولت الفكرة إلى شكل جذاب وفاعل، ولكنها لم تنوجد كإنسان. لماذا؟ لأنها بقيت قطعاً متراكبة، حالة مركبة من شذرات مختلفة، نتفاً من أشخاص مختلفين، معلمات قرأت عنهن، أخريات عملن معنا في مركز القطان، زملاء وزميلات عملت معهم، وجزء صغير مني كان فيها أيضاً.

في مساق الخليل، ومع مجموعة رائعة من المعلمين والمعلمات، وزعت عليهم المادة وتمت قراءتها في سياق جماعي، ثم دار حول ذلك نقاش في مجموعات، ثم محادثة على مستوى المجموعة الكلية.

ومن المحادثة والحوار تيقنت أن التجربة تمتلك إمكانيات هائلة للنجاح، فالكل اقتنع أن المادة هي من نتاج معلمة، وأن الكتابة قد ساهمت في تفعيل مشروع التمهين، وساعدت على تطور قدراتها في التأمل في الممارسة وفي التأمل في الكتابة، وهي أيضاً قد تكلمت عن الكتابة التي تحولت بالنسبة لها من عبء إلى مرآة، ثم إلى ذاكرة . . إلى مخيلة وعدسة تركيز، وأنها قد ذكرت التغييرات التي طرأت عليها؛ تغيرات مصحوبة بدفقات شعورية ومراجعات نقدية، وتطرقت للأساليب، ومنها الكتابة، والمقابلة، والمشاركة مع آخرين، والتجريب. . . الخ.

لكنني تأكدت من أن توفير مواد أخرى عن هذه المعلمة سيغني تجربتها، ويغني النشاط حيث سيوفر مواد متنوعة تقدم إستراتيجيات مختلفة للتكون الذاتي وتؤشر على أساليبه، وتوفر مواد متنوعة تمكنني من تقسيم المشاركين في مجموعات تبحث كل مجموعة منها في مواد تختلف عن المجموعات الأخرى، ما يعطي النقاش اللاحق حيوية وإثارة، حيث كل مجموعة تكتشف جوانب أخرى للشخصية. ولذلك بدأت بكتابة مذكراتها الشخصية، شذرات من تطورها المعرفي، تعريفها لمفاهيم الحياة والتعليم والتعلم . . . الخ، وبدأت أعد لكتابة سلسلة من المقابلات التي كانت تجريها مع الفريق المشرف كل شهر خلال السنة، وبدأت أعد، وكتبت أجزاء من كل مقابلة، ولاحظت أنني أصبحت

أحسها إنسانة، وأعمل على بناء تطور متناسق، وفي سياق مسار حياة حية، وبسبب أن نشاطي في مجال القراءة والكتابة يقابله كسل على مستوى الطباعة والتنسيق والتقنيات الفنية، فإن المقابلات أنجزت على شكل شذرات مكتوبة بخط اليد، وخربشات هنا وأخرى هناك، وكأن حظاً ما أراد ذلك.

فقد حان وقت تنفيذ مساق مشترك نقوم به أنا وزميلي وسيم مع مجموعة من المعلمين والمعلمات في بيت لحم بالتعاون مع مؤسسة صابرين، وكانت مؤسسة صابرين تريدنا تنفيذ ورشة في التخطيط والأساليب. ولعدم قناعاتنا بعمق الفكرة، اقترحنا عليهم مساق التكوين المهني المستمر: تجربة في الممارسة والسرد والتأمل.

وبدأنا نخطط لمساق وكان، وكان فعلاً مساقاً مختلفاً ونقلة نوعية في عملنا معاً، فتشوشي الذهني وجد في دقة وسيم ومنهجيته أطراً فاعلة، في العمل مع شخص مثل وسيم وضمن خبرته في تفعيل الجسد وبناء الموقف الدرامي وجدت قاعدة أرضية للكثير من أفكاري المنفلتة، فكثيراً ما ساعدني على إنتاج الجهاز الذي يترجم المنظومة إلى نشاط أو العثور على المنظومة التي تشغل الجهاز، وكأننا معاً تمكنا من إعادة صياغة عملنا ليصبح لثالث هو نحن وآخر يفضلنا معاً.

في اليوم الأول عملنا معهم على الكتابة والكتابة الذاتية، وفي سياقات متنوعة، ما جعل ما كتبوه تعريفاً بالذات ووثيقة تاريخية ثقافية عن شخص وعصر، وبعد تجميع المواد المكتوبة، أعدنا توزيع المشاركين على شكل مجموعات في دور باحثين، يقومون بأخذ أوراق أحد المشاركين وتحليلها تحليلاً ثقافياً.

وفي اليوم الثاني، خططنا للعمل مع المعلمين على أوراق هذه المعلمة ليحللوها، واتفقنا أن نعطيهم كتاباتها اليومية، وبطاقات كتبت عليها تعريفات لمفهومي التعليم والتعلم كنت قد كتبتها في أزمان مختلفة أثناء عبورها للتجربة، واجتهدنا ليكون الشكل فاعلاً، فرسمنا جسدها على ورق مفرود على الأرض لكي نكتب الجسد بلغة التحولات والمشاعر، ولكون المقابلات جاهزة في ذهني أكثر من جهوزيتها على الورق، ولمعرفتي بوسيم ودقته في اختيار الشكل والخط والمحتوى، قدرت أن لا وقت لدي لإنجاز المقابلات مكتوبة، واقترحت أن أحكيها في سياق لعب دورها، هكذا دخلت التجربة وكأني أضع المعنى في المرآة، أو أقرر أن أحكيها أنا كما أصبحت أعرفها، أو أحكي أجزاء مني وأنا مختفٍ خلف قناع. وهنا في هذه التجربة انفلتت منى قصص وذكريات في غير هذا الموضع ما كان لها أن تخرج، وفي سياق كوني شخص آخر غيري تمكنت من إعادة إنتاج ذكرياتي وقصص الآخرين في حبكة مزدوجة الأصل خبرتي وقراءتي وخبراتهم كلهم ما كان لي وأنا ذاتي أن أجرؤ أن أسطو عليها بهذا الشكل، وأن أدعي ملكيتها لكن كوني في دور سمح لي ذلك، وهذا ما سترونه الآن.[1]

مقتطفات من المقابلة: مما قلته وأنا خلف القناع

أحكي أم تسألونني؟ لا، احكِ

هذه التجربة جزء من مشروع تطوير كانت تتابعه معنا مؤسسة، ضمن المشروع كنا نكتب يوميات، كما كان هناك دفتر مشترك بيني وبين زميلتي، نكتب فيه بالتناوب ونتبادله، وكان ثمة مراسلة مع معلمة لا أعرفها، أبعث لها رسائل عن طريق فريق التدريب وتعود لي الردود، وهذه كانت فرصة جيدة كثيرا، لأني كنت أكتب لها كل الأشياء، لأني لا أعرفها، ولأنها كانت تحكي لي قصصها وما يحدث معها، بالإضافة إلى ذلك كنا نكتب يوميات كتابة سردية توثيقية، وكنا نخطط لدروس بشكل ثنائي أو أكثر، أو فردي، ونصورها بالفيديو لكي نتمكن من التأمل فيها بشكل بعدي؛ أي استرجاعها عند الحاجة كوسيط للتأمل، أرشيف ذاكرة، مصدر بحثي، حيث نستفيد منه في تحليل التجربة أو عرضها.

في المقابلة الأولى قلت للفريق: ماذا أحكي، أعتقد أني أدرِّس بالطريقة نفسها التي تعرفونها، أفضل أن تسألوني وأجيب.
– اعتبريه سؤالاً: احكي لنا كيف تدرسين؟ ما المشاكل التي تواجهك؟ كيف تتصرفين إزاءها؟

أتعب كثيراً، أحضر دروسي، أراجع واجبات الطلاب، أصححها، استخدم أقلاماً ملونة، أعزز البعض، لكن عبثا ما يقدم من المردود أقل بكثير مما أبذل من جهد. أما في المقابلة الثانية، فقد قلت لهم: أهلاً، أظن أني سأكون أفضل من المرة السابقة لدي ما أقوله، أحس أني أصبحت أكثر ميلاً لتقبل التحدي، أشعر بإرهاق لكني بدأت أشعر بلذة التحدي، أكتب، تخيلوا أني أكتب يومياً، كنت أحسه واجباً ثقيلاً، كنت أكتب سطوراً قليلة، أحسني أصبحت أكتب بطريقة أوضح . . . أخشى أن أدمن على الكتابة . . . ضحك.
أعود إلى قراءة ما كتبته سابقاً فأحس أنني أعرف نفسي أفضل، أفكر فيما أعمل بشكل أوضح، صرت أحس الكتابة مرآة أخرى.

بدأت أحاديثنا في غرفة المعلمات تختلف، أصبحنا نحكي في موضوع يمس عملنا، نحكي بروح أفضل، بعضنا ما زال يرفض الاعتراف بأهمية ما نجرب، لكن صرت أحس أنني أقرب إلى المجموعة النشطة، ما زلت أحس أن تجربتي متواضعة، لكني أحس أني بدأت أتلمس طريقي بشكل أوضح.
بدأت أكلف طلابي بمهام وأدرس النتائج، بعضهم يحقق نتائج جيدة، أو كلهم تقريباً، بشكل عام كل واحد منهم فيه حسنات يمكن توظيفها.

وفي الإجابة عن سؤال أحد المعلمين المشاركين حول كيفية الاستفادة من الشراكة مع زميلتي؟

قلت: كنت أتأمل في أسلوبي من خلال ملاحظتي لما تعمل، دائماً أتخيل كيف أفعل الشيء نفسه، وأقول أنا أفعل هذا بشكل آخر، وهي تفعله بهذا الشكل، وأجري مقارنة، وغالباً ما أتوصل لشكل أفضل من الشكلين، لن تتعلم إذا عملت مثل شخص آخر، لكنك تتعلم كثيراً إذا ما عملت مع شخص آخر، إذا ما رأيت عملك في مرآة عمله، وإذا كسرت أسلوبك لتلتقي مع آخر في أسلوبه، إذا انزحت لآخر يشاركك، إنها تجربة مثيرة، فثمة قصة حدثت معي سأحكيها، سأحكي لكم عن رامي: كان من الطلاب المهملين، لا نكلفه بأي شيء،

من فترة أحسست به ينظر إلي بشكل ما، لا أعرف لفت اهتمامي، لا أعرف كيف، ولا متى، أخذت قصصاً بعدد الطلاب، طلاب الرابع ما عدا رامي والطالب (س)، (س) حالة خاصة، ورامي لا يجيد القراءة والكتابة، وعندما بدأت بالتوزيع، أحسست به ينظر في عيني مباشرة، وكأنه يحذرني ويقول: إياك أن تتجاهليني، ألم تقولي: أننا سنعمل هذه السنة بطريقة مغايرة.

وفعلاً، كانت بحقيبتي قصة أخذتها لابنة أختي، لقد أنقذت الموقف، أعطيتها له بطريقة احتفالية، قلت هذه كلها من المكتبة، أما رامي سأعطيك القصة التي كنت أقرأها. قصة رائعة.

في يوم النشاط، أحسست بالطاقة في عيونه، عيون تشع، طالب يكاد يطير فوق الدرج، أحسست به ينتظر دوره، حكى القصة، ومثَّل الحوار. كان يحس بعيوني، كان يرضيني وكنت راضية وأشكر الصدفة، كل الموضوع صدفة . . . هكذا قلت لفريق التدريب في المقابلة الثانية أو الثالثة، ولكن في المقابلة التي تلتها قلت لهم: إذا سمحتم لي بالعودة إلى قصة رامي، كي أعيد تفسير ما حدث فقد قلت: إن الموضوع قد يكون صدفة، لكني في كتابتي اليومية السابقة، عندما عدت إليها وجدت نفسي قد كتبت أسطراً عن رامي، منها أنه بدأ يثر إعجابي، وأني قد سمعته في الساحة يحكي لزملائه عن برنامج تلفزيوني وأنه كان يعبر عن أفكاره بشكل جيد ومتسلسل، هل تظنون أني كنت في داخلي أعرف أنه يستطيع أن يقرأ القصة ويعمل الواجب دون أن أدرك ذلك، وأن هذا ما ساعدني على أن اقرأ ذلك في عينيه، وأنني لو لم أتعود على التفكير في ممارستي بالكتابة، لما تمكنت من الملاحظة؟ نعم أنا الآن أتذكر أنني عندما حضرت حصة لزميلتي في صفهم، لاحظت أنها تهتم به كثيراً وتخرجه كثيراً لكي يمثل أدواراً، وعندما سألتها عنه قالت: إن لديه قدرات جيدة، ثم أضافت، أنا أحبه.

وثمة سؤال من مشترك: هل كل التحول هو نتاج للعمل في مشروع التكون المهني، وبفضل الفريق والمنهجيات الجديدة، أم أن السبب يعود إلى استعداداتك الذاتية وقدرتك على التغير؟

فقلت: بالتأكيد ما حدث هو نتاج لكل هذه الأسباب، واضح أنه كان لدي استعدادات وقدرات، لكنها كانت هاجعة تحت الضغط اليومي، وتحت عقد ومركبات نقص قديمة غائرة في أعماق ذاتي، وأن دور الفريق وما وفروه لنا من انخراط مختلف في التجربة، ومن أدوات تأمل وتفكير ومنهجيات في الرصد والتحليل، كل هذه مثلت بالنسبة لي آليات لكشف الإمكانات وتنميتها، وكشف مركبات النقص ومعالجتها، فربطي مثلاً بالمعلمة محاسن، تلك المعلمة التي لا أعرف إلا اسمها الأول، لكني من رسائلها أصبحت أحبها وأتخيلها كإنسانه وصديقة، هي الوحيدة التي ذكرت لها حكاية أنني في بداية ممارستي للمهنة، عملت في مدرسة سابقة، وفي يوم من الأيام دخلت إلى محل للبيع، ووجدت هناك شابين صغيرين في المحل؛ واحد منهم كان من تلامذتي، ما أزعجني أن الطالب قد تجاهل معرفتي أو وجودي، وما سبب لي الجرح المهني الأول أنني عند خروجي سمعته يقول لزميله: هذه معلمتنا التي نسميها البطة العرجاء. كلام جرحني، كسر علاقتي بالطلاب، جعلني أكره نفسي أكره المدرسة، ربما كان هذا أحد أسباب طلب نقلي من المدرسة، هذه الحادثة منذ سنوات وأنا لم أحكها لأحد، كتبتها لها، للمعلمة التي تعرفت عليها عبر الفريق وعبر المراسلة، وكم سعدت بردها، قالت لي: يا مجنونة، طلابي يطلقون عليَّ الكلبة العمياء أو البلهاء، ولهذا أحبهم، كل الطلاب يفعلون ذلك، اقتربي منهم وأحبيهم و كل شيء سيتغير.

كتبت لي قصصاً كثيرة، كم أنا سعيدة بمعرفتها، طلبت من الفريق أن يجمعونني بها شخصياً، لقد أحببتها، الجميل فيما تكتبه أنها دائماً تربط ما تفعله بشخصيتها، بماضيها، بحياتها، تعلمت منها. اليوم أصبح عندي تجربة مختلفة، كل حصة أصبحت شيئاً يخصني، لأن فيها حكاية . . . فيها إنجاز، ما كان في الماضي مشكلة تستفزني وتوترني، أصبح فرصة أنتظرها لأجرب شيئاً جديداً، بذرة لتجربة، وصفحة جديدة في حكايتي.

وعندما سمعت ما قلته وأنا في الدور، اكتشفت كيف انبنت بعض الحكايات فحكاية فادي قد قرأت ما يماثلها، أما حكاية محاسن فكان الجزء الأول منها؛ أي قصة ربطي مع محاسن، فبركة سردية لشكل جديد من تبادل الخبرة، أما قصة الطالب والكلام الذي قاله عني كمعلمة، فقد تكون تحويراً لقصة ما حدثت معي وسمعتها، لكني لم أوفق للقبض على جذر لها.

دما كنت في الدور، عبرت عن تجربتي بعمق وجرأة، واستعنت بالمخيلة دون أي انتباهة لصدق الواقع أو منطق الحقيقة، ومزجت قراءتي بخبرتي، وغصت في ذات أخرى فاكتشفت الكثير من ذاتي فيها.

جدلية المرآة والقناع

ما سمعته من وسيم ومن المعلمين والمعلمات، جعلني أيقن أن ما فعلته كان حقيقياً، وكان تعبيراً عن تلك المزاوجة بين أن تكتب عن شيء، وأن تحكي عنه بعد وقبل، ثم تعود لتكتب عنه، وعن تلك المزاوجة بين أن تكتب الآخر في كتابتك لذاتك، وكما يقال فـ"الكتابة ما هي إلا قراءة الآخر".

أن تعمل مع مجموعة من المعلمين كالمجموعة التي عملنا معها في بيت لحم فرصة لا تتكرر كثيراً، ففي ضوء الملاحظات التي سمعتها والتشجيع، أحببت ذاتي وأنا معلمة وأحببت هذه المعلمة، ما جعلني أرى في كلامهم صورة لي وأنا خلف قناع ذات أخرى، فعلمت عمق تلك الفرصة، فرصة أن تكون صورة لقناع، وفرصة أن تحكي ذاتك وهي مرتحلة في مواقع أخرى، وأن ترى صورتك في عيون آخرين يحكون الآخر فيك.

وعندما شاهدت الفيديو اكتشفت أنها تحولت من شكل دال إلى جسد حي، وأن مشاعري اتجاهها نمت مع نموها كمعلمة وإنسانة، فما نسميه مشاعرنا هو في حقيقته ليس نزوعات لا واعية بقدر ما هو أفكارنا الخاصة التي ننميها يومياً، وهذا دفعني لكتابة مقابلاتها وطباعتها، ما جعلها تنتقل من شكل إلى جسد حي، ومن شخص إلى حياة كاملة فيها علامة وعلاقة وصيرورة، فأنا في رام الله في لقاء مع مجموعة معلمين

أحكي عنها من الخارج، أحكي عنها كإنسانة أعرفها، وتطرقت إلى حياتها الجامعية، وإلى مرورها بتجربة عاطفية وسياسية متعثرة، وكان السؤال: هل هذه التجربة هي سبب ترددها وضعفها أم شيء آخر؟ وقد لمحت إلى فشلها أو تعثر حياتها الزوجية، لكن وسيم لفت نظري إلى شيئين: الأول قال مالك، لقد أصبحت تحبها، والثاني: قال إن نجاحها في عملها وتحقيقها لذاتها، جعلها تعيد تقويم حياتها السابقة، أو على الأقل تتجرأ وتحكي عنها.

في أريحا اكتملت أوراقها واكتملت مسيرتها، اطلع المشاركون على يومياتها ومذكراتها، مقابلاتها، وعلى حضورها الشخصي، في أريحا أسميتها فريدة، أطلقت عليها اسماً، وغصت في أعمق ذاكرة لها وتكلمت عن يومها الأول في المدرسة عندما كانت طالبة، وكيف تحول إلى صدمة، ما جعلها ضحية لتسرع معلمة، في الإجابة عن سؤال كيف أصبحت معلمة؟ قلت: صدفةً درست علم اجتماع، ولم أجد عملاً آخر، وأعطيت فرصة التعليم. فذهبت إلى المدرسة. وفي يومي الأول كمعلمة تذكرت يومي الأول عندما كنت طالبة، أسابيع وأشهر وأنا أتحضر ذهنياً لهذا اليوم، يومياً أخرج ملابس المدرسة: المريول الأزرق، المقلم، الشبرات البيض، الجرابات البيض الطويلة، الحذاء الأبيض، ربطة العنق، وقضيت اليوم الأول بين الافتنان بالملابس وبياضها وبين المدرسة وجمالها وضخامتها وحديقتها والطالبات والمعلمات. وفي إحدى حصص اليوم الأول وزعت المعلمة علينا ورقة فيها حصان، أرنب، . . . الخ. وفي العمود المقابل حذوة، جزر . . . الخ، وبينما وأنا أنظر في الورقة أتأمل الأشكال وأتذوق الألوان وأشرب المعاني يبدو أني استغرقت أكثر من المطلوب، فأنهى الطلاب الواجب، واستيقظت على صراخ المعلمة وهي تقول لي: يبدو أنك لا تفهمين معنى الكلام، لم تفعلي شيئاً، أشرف تعال ساعدها، اعمل لها ورقتها، تقدم أشرف، حل مكاني وعمل الواجب الذي كنت أستطيع فعله بامتياز، لكن ما حدث كسر شيئاً ما في فجأة المدرسة، تنقلب من حلم إلى مكان أرضي جداً، وملابسي تفقد لمعانها وبهت بياضها، والأيام تمر وكذلك مساعدة أشرف تتكرر، وصراخ المعلمة يزداد، وكلامها يزداد قسوة، وعنادي يجعلني أتأخر ليس تأملاً كما كان في اليوم الأول بل كي أغيظها، وهذه البداية طبعت علاقتي مع المدرسة وأنا طالبة، وكذلك وأنا معلمة، فعندما كنت أبذل جهداً في التحضير والقراءة كان السبب هو فرض الذات وليس الرغبة أو المتعة أو لبناء الذات والتحضر للمستقبل.

وفي نهاية المقابلة، سئلت عن سبب فشلها كزوجة فأعلنت عودتها إلى بيتها ونجاحها في البيت والمدرسة، وقدمتها قصة كفاح، قصة نجاح. لكن الأهم أنني الآن أعلن عنها كمعلمة فلسطينية، صحيح هي بدأت على الورق كمعلمة أوروبية مترجمة، لكنها في الخليل وأصالتها ولدت عربية، وتوشحت في بيت لحم وقداستها باللباس الفلسطيني، وفي عمق أريحا الدافئ وعراقتها كتبت تاريخها كمواطنة فلسطينية، نعم أصبحت مواطنة فلسطينية واسمها فريدة، لن أعود للعب دورها، فلم تعد شكلاً ولا جسداً ولا معلمة، بل أصبحت حكاية نمو، وتجربة صيرورة، وقصة شخص، ومهنة ومجتمع، لذلك لن استخدمها كوسيلة، قد اكتبها رواية، لكنها ستبقى رواية ناقصةً.

مالك الريماوي – مركز القطان

الهوامش

[1] تم عرض مادة على شكل فيديو لمدة 30 دقيقة، يمكن لم يرغب الاطلاع عليها في مركز القطان، أو الحصول على نسخة DVD، وسنقدم جزءاً منها مكتوباً.

من المؤتمر التربوي الثاني.